86 - السيدة قيلة بنت مَخْرمة

أم البنات المؤمنات

اسمها قَيْلَةُ، والدها مَخْرَمَةُ التميمي، زوجها حبيب بن أزهر، أنجبت له عدداً من البنات، ولم يرزقها الله أيّاً من الذكور، وقضت مشيئته تعالى أن يتوفَّى زوجها في مطلع ظهور الإسلام، فاستسلمت قَيْلَةُ لقضاء الله، ولم تجد عن الرضاء بحكمه بديلاً، فقعدت على بناتها تربِّيهنَّ على مبادىء الإسلام ومكارمه.

وعلى حين غِرَّةٍ جاءها أثوب بن أزهر وانتزع بنات أخيه منها، دون أن يرحم وحدتها، أو يرقَّ لمصابها بفقد زوجها.

وقرَّرت التماس من يصحبها إلى رسول الله ﷺ لتشكو إليه أمرها، وتخبره بما نزل بها، وما إن علمت أن حريث بن حسان وافد بني بكر بن وائل يبتغي الخروج إلى رسول الله ﷺ حتى سألته الصحبة، فقال: نعم، وكرامة.

خروجها للقاء رسول الله ﷺ

فلما قدما على رسول الله ﷺ كانت قد أُقيمت صلاة الفجر، والنجوم شابكة في السماء، والرجال تكاد لا تعارف مع ظلمة الليل.

تقول قَيْلَةُ - رضي الله عنها -: فصففت مع الرجال، وأنا امرأة حديثة عهدٍ بالجاهلية، فقال لي الرجل الذي يليني من الصفِّ: امرأة أنت أم رجل؟ فقلت: لا، بل امرأة، قال: إنك كدت تفتنيني، فصلِّي وراءك في النساء، فإذا صفٌّ من النساء قد حَدَثَ عند الحجرات لم أكن قد رأيته حين دخلت، فكنت معهنَّ، فلما طلعت الشمس دنوتُ، فكنت إذا رأيت رجلاً ذا رداء وذا

قِشْر[1] طمح إليه بصري، لأرى رسول الله ﷺ، فلما ارتفعت الشمس جاء رجلٌ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «**وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ الله وبَرَكَاتُهُ**».

قالت قَيْلَةُ: وَعلى رسول الله ﷺ أسمالٌ[2]، فلما رأيت رسول الله ﷺ والتخشُّع في مجلسه أُرْعِدْتُ مِنَ الْفَرَقِ[3]، وقد روى هذه الحادثة أبو داود عن أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، وَمُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قالا: حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ حَسَّان الْعَنْبَرِيُّ قَال: حَدَّثَتْنِي جَدَّتَايَ: صَفِيَّةُ وَدُحَيْبَةُ ابْنَتَا عُلَيْبَة بِنْتِ حَرْمَلَة، وَكَانَتَا رَبِيبَتَيْ قَيْلَة بِنْتِ مَخْرَمَة، وَكَانَتْ جَدَّة أبيهِمَا، أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُمَا أَنَّهَا رَأَتْ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ قَاعِدٌ الْقُرْفُصَاءَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ الْمُخْتَشِعِ، والْمُتَخَشِّعَ في الْجَلْسَةِ، أُرْعِدْتُ مِنَ الْفَرَقِ[4]، فقال له جليسه: يا رسول الله، أُرْعِدَتْ المسكينة!! فقال بيده، ولم ينظر إليَّ وأنا عند ظهره: «**يا مِسْكِينَةُ، عَلَيْكِ السَّكِينَةُ**»، فذهب عني ما كنت أجد من الرعب، فتقدَّم صاحبي أول ما تقدَّم فبايعه على الإسلام وعلى قومه.

وتتابع قَيْلَةُ حديثها فتقول: ثم أمر كاتبه أن يكتب لي عهداً، فكتب لي في قطعة أديم أحمر: «**لَقَيْلَة والنُّسْوَة بَنَاتِ قَيْلَة، لا يُظْلَمْنَ حَقّاً، وَلا يُكْرَهْنَ عَلى مَنْكِحٍ، وَكُلُّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ لَهُنَّ نَصِيرٌ**».

لقد ضمن لها رسول الله ﷺ بهذا العهد والأمان رعايتها ورعاية بناتها اللواتي أُخذنَ منها قسراً، فقرَّت عيناً، واطمأنَّت بالاً على نفسها وعلى بناتها، وعاشت كريمة معهنَّ حتى وافاها وإياهنَّ الأجل المحتوم.

(1) ذا قِشْرٍ: ذا لباسٍ حسنٍ.
(2) الأسمال: الأثواب البالية.
(3) الفرقُ: شدَّة الخوف.
(4) رواه: أبو داود/ كتاب: الأدب/ باب: في جلوس الرجل/ برقم: (4207).